قصة

المسؤول الكبير

علاء الدين كاتبة *

لم يتوقع المسؤول الكبير أن تنتهي حياته إلى مجرّد فقاعة، وهو مَن كان يعتقد أن الناس سيحتفون بنهايته العظيمة، على قدر ما كان يعيش وسطهم من عظمة ومهابة، ربما وجد عزاءه الوحيد في أنهم لم يجدوه عارياً بفراشه في وضع مخجل، رغم أنهم لم يخجلوا من النظر إلى سوأته، حين قاموا بغسله على مرأى ابنيه، لكن الأمر الذي استدعى غرابته أكثر؛ هو عدم إحساسه بحرارة الماء المنسكب على جسده رغم ما يلفّه وَمَنْ حوله من بخار متصاعد. كان مجرّداً من أي مشاعر عدا رغبته بالتغوط، التي ظلت تلازمه دون جدوى. ودَّ لو يصرخ بهم: ويحكم، ماذا تفعلون بي، ألا تعرفون من أنا؟!.. لكنه استنكف في اللحظة الأخيرة عن إلقاء أوامره، ظاناً أن الأمر مجرد حلم عابر، والأجدر به، وهو هذا المسؤول الكبير، أن يستنكف عن صغار الناس الذين يباغتونه دائماً في كوابيسه وأحلامه، ينغصون عليه هناء العيش، يطلون عليه بوجوههم الماكرة الخبيثة متضرعين له أذلاء من أجل حاجة رخيصة. لكن هذا الحلم كان يختلف عن سابقيه، وقد راعه أن من حوله ينظرون إليه بعيون لا مبالية، كأنه ليس موجوداً على الإطلاق، ثم ما حدث ما لا يقدر على تخيله في أن يجرؤ أحدهم على حشو فمه بقطعة كبيرة من القطن، وما لبث أن قَلَبَهُ على قفاه واضعاً بإصبعين ثخينتين قطعةً مثيلة في دبره!.. تذكر تلك اللحظات الخواليّ مع عشيقته، وهي الشخص الوحيد الذي يُتيح له أن يمرر أظفره الطويل في المكان الحميم ذاته. كاد يشعر القدر نفسه من اللذة كما لو أنه معها، لولا هذه الرغبة اللعينة بالتغوط، وقد بدا له أن أحشاءه آيلةٌ للانفجار في أية برهةٍ من زمنه الزائل.

بدأ كل شيء بسبب أحشائه اللعينة إذاً، والتي حرَنَت عن دخول بيت الراحة منذ ثلاثة أيام وليال، حتى كادت تتحجّر، وقد بات ليلته الأخيرة يقظاً، لم يغفل له جفن، بسبب فورة الأوجاع التي انتابته كالسهام الموجهة، وسَاد لديه شعورٌ عارمٌ بالتقزز من نفسه، بسبب ما خلّفته آلامه، أيضاً، من فكرة مسيطرة، أنه قريباً سيتحول إلى تمثال من خراء قاس، فما أن انبلج الصبح، حتى درج في سيارته باحثاً عن أقرب صيدلية في المكان، ولمّا كان الوقت ما زال مبكّراً، اضطر للدوَران في شوارع المدينة لأكثر من ساعة، يحثُّه أملٌ مبهم بالخلاص، لكن إشارة مرور حمراء كانت له بالمرصاد، فلم يطق أن توقف إشارة غبية سيل سرابه الهارب، فانحرف بجنون عنها محاولاً الالتفاف، إلا أن حظه في الحياة لم يواته هذه المرّة جيداً، فاصطدم بإحدى السيارات المارة على الجانب الآخر، ولحقه شرطي غضوب، تمكن أن يوقفه بعد مطاردة قَصيرة، طالباً منه أوراقه الثبوتية، وما كان منه إلا أن أطلق ضحكةً مجنونة، لم يَدْرِ إن كان مصدرها انتفاخ معدته أم عَظَمة نفسه الجريحة، لكنه أطلق في وجه الشرطي سيلاً من الشتائم، بما يكفي أن يملأ مجارَير المدينة لمدة تعادل أيام ألمه الرهيبة، وانفجر زاعقاً بملء انتفاخه الغامض: ألا تعرف من.. أنا.. أنا؟! تطلّع إليه الشرطي بازدراء، وما كان منه إلا أن أخرجه من سيارته بعنوة، راداً له الصاع صاعين، اكتشف المسؤول الكبير عندها أنه ما زال في منامته، وقد نسي أن يحمل معه أي أوراق تثبت شخصيته الجليلة،

وشعر بنفسه تتلاشى إلى أقصى حدٍّ ممكن، وقَبلَ في نهاية الأمر أن يحرر له طلباً للمحكمة تلافياً لما هو عليه مَن إحراج، وعندما سأله الشرطي عن اسمه، ظل مستغرباً يرسم وجهه علامات الدهشة من تطابقه مع اسم المسؤول الكبير، ومكذباً أن يكون هذا الشخص الهزيل أشعث الشعر، هو المسؤول ذاته ذو الطلعة البهية أمام شاشة التلفاز ضيفاً دائماً يستشيرونه في شؤون الطبخ والأدب والسياسة.

عاد المسؤول إلى بيته محطماً، يحسّ بالقهر الذي أصاب روحه العالية، نسي أمر الدواء، وألقى بثقله على الفراش، ممنياً النفس أن تعود أموره جميعها قريباً إلى سابق عهدها، وهذا ما تحقق له بأسرع مما يتوقع، إذ وجد نفسه يذهب إلى إحدى الصيدليات بموكب مهيب.

وما أن ظهر بطلعته البهيةً، حتى وقف الصيدلاني مشدوهاً من حضوره الجليل، غير مصدق أنه يزوره هو بالذات، فانطلق مرحباً به بفرحٍ غامر، وابتسم له المسؤول بدوره معبراً عن رضاه، ثم طلب منه دواء لـ... لكن الصيدلي لم يسعفه على استرساله في الطلب، حتى كان يقفز كالبهلوان في أرجاء صيدليته صافاً أمام ناظريه عيّنةً من كل صنف من الدواء، ثم أخذ يسجّل عليها لزوم الاستعمال، محمّلاً مرافقيه أكياساً ممتلئة، داعياً له بالصحة العارمة والشفاء العاجل والعمر المديد، بل وأبى على نفسه أن يقبض ثمناً بخساً يقايض به أهمية هذه الزيارة التي وصفها بالتاريخية، وحمل له طلباً واحداً؛ أن يأخذ معه صورة تذكارية، معلّقاً: إنها المكافأة الوحيدة التي أرضاها.

عاد يسير في شوارع المدينة باحثاً عن الشرطي الأحمق، راغباً في أن يخلع له أذنيه، لكن هذا الشرطي، الذي ربما جاءه من حلم ثقيل، اختفى تماماً عن وجه البسيطة، ولم يجد له اسماً حتى في ملفات الشرطة. فكّر المسؤول في أمره ملياً، ولم يجد تفسيراً لذلك سوى أنه قام بمعاقبة نفسه على فعلته الشنيعة، وآثر الاختباء تماماً عن الوجود.

انفرجت أساريره على ما فكّر به، وتلاشى لديه ذاك الشعور المباغت بالقهر، وحلّ بدلاً منه شعورٌ بالغٌ بالغبطة والراحة، ومال على جنبه في فراشه مخرجاً ريحاً عالياً ولذيذاً، لحقه دون توقع عدد من الحشرجات وارتعاشات في الجسد، ثمّ شخير قاطع، أغلق نافذة الحلم، واستيقظ على نفسه وسط أناس غرباء يقلبونه ذات اليمين وذات الشمال عارياً كما أخرجته أمه.

ما كان يزعجه لحظتها أنه لم يقدر بتاتاً على النهوض، كي يذهب إلى الغائط بفعل الدواء، وقد حوّل بقدرة ساحر إمساكه البالغ إلى إسهال شديد، أخذ يكركع في أحشائه ويمور، وممّا بات غيظه أكثر أنه لم يقدر على الخروج من كابوسه المزعج، والذي لم ينته عن الاسترسال رغماً عنه، لقد تأكد له تماماً أن الناس الذين بدأوا بالتوافد من كل حدب وصوب يظنونه ميتاً، وظهر على حين غرّة وسطهم الشرطيّ الأحمق، رغم ما ذهبت به الظنون أن الأرض قد ابتلعته مرةً وللأبد.

بدأت تروعه صوره المنتشرة في أرجاء المدينة، والأكاليل التي تحيط بجسده المسجّى، محملةً بلقب «الشهيد»، وبدا له أن مجرد تفكيره أنه شهيد أحشائه كاف لأن يزيد عليه درجة المغص، ويشعره بالمزيد من المهانة، خاصة أنه كان يقاوم روحه كي تستيقظ من سباتها في ذات اللحظة التي تهافتت الأيادي لحمله في موكب مهيب، فأخذ يصرخ بهم: أنا ما زلت حياً، إنها مجرد غيبوبة... لكن أحداً منهم لم يعره انتباهاً، وساروا به إلى طريقه المحتوم.

حزن على نفسه حزناً بالغاً، وشعر بالعزلة المطلقة، فلم يعد قادراً على إلقاء أوامره، ولم يعد أحدٌ على وجه البسيطة يخشاه، فلجأ إلى أحشائه الوحيدة الباقية على توحّدها معه، تمنحه الشعور الأخير بالحياة رغم ما يهيلونه عليه من تراب.

شعر باختناق مهول، وأراد أن ينظر إلى ساعته الذهبية فلم يجدها، فأدرك أخيراً أنه لم يعد لديه من وقت على الإطلاق للذهاب إلى مكتبه الفاخر، وقد أيقن، أيضاً، أنه يرى روحه لأول مرة تصعد كفقاعة ثقيلة ورخوة، وأخذت تتنطط في المسافة الضيقة بين جسده وباب القبر، حاول بعناد يائس أن يرفع عنه الغطاء، لكن روحه كانت أسرع منه في الخروج، وما لبثت أن انفجرت أشلاءً في أرجاء القبر فقاعةً من خراء.

---

* ناقد وكاتب فلسطيني يقيم في خانيونس / غزّة.

شحاذة وشحاذ

ماجد عاطف *

الدكان:

«اللهم باسمك . . إليك الملاذ وعليك المتكل» .

وينزلق مغلاق الباب بالطريقة نفسها التي دأب عليها منذ أربعين عاماً: طقتان، طقة، طقتان. باب عربي متين عريض لم يُطلَ طوال الأربعين عاماً. يبدو جديداً ما عدا مواضع وصلتها أقدام الأولاد. المرّة الوحيدة التي اضطررت فيها إلى حرقه وإعادة طلائه، كانت حين لُطِخَ بمختلف الألوان والتواقيع قبل أن يصدر قرار بتبييض الجدران والأبواب وإزالة ما كتب عليها أو رسم.

صدق من قال: «الحيطان دفاتر المجانين»!

أي والله!

بابٌ قاس صعبٌ على الإغلاق والفتح، لكنّ نفسي لم تطاوعني بأخذ نصائح الكثيرين واستبداله. لو توقف الأمر على الناصحينَ، مستأجري الطابق الأعلى، لكان عليّ تركه لهم. سبحان الله! لم يجدوا غير دكاني ليدعموا المبنى منه ويقيموا فيه أعمدة داعمة وتركوا دكاكين التسوية وموقف السيارات!

«لا حول ولا قوة إلا بالله. عليك توكلت وإليك أتوب. اللهم ارزقنا مما رزقت» .

وتحين مني التفاتة. هي الشحاذة ذاتها، منذ شهرين، تقف أمام دكّاني. اندفع غضبي ولجمته. لم أعرف هل أتعوذ أم أحوقل. ولأنني لم أعرف ماذا أفعل، حملت قالباً صغيراً من الحلاوة أحالته الأيدي المتفحصة ـ داخل غلافه ـ إلى مسحوق ووضعته أمامها على الشال. قلت لنظرتها الغريبة: إنه لن ينزل إلى معدتها قالباً على أي حال! كأنّها تجاملني، رفعت يدها ودعت لي وربما، في سرّي وسرّها، قلت: إنها دعت عليّ.

تأخّرت هذا الصباح في القدوم، لكن لا يبدو على الناس أنّها نهضت لتبتاع حاجاتها، فلم يكن هناك الكثير من المارة. وحتى لو استطاعت القلّة تخطّي الحواجز والدخول، فإنّها لن تأتي لتشتري مني، فيغرُّها المنظر والديكور. زبائني قلّة من القرويين، قلّت أكثر. . على الحال ذاتها أنا وأنت. أنت تشحذين بيدك وأنا ببضاعة القرى المبتعدة!

ما يقهرني في رؤيتها كل صباح، ليس كونها صبية تستطيع أن تعمل، وبدوية على الأرجح بثوبها الأسود ضمن عصابة من الشحاذات، وليس التصاقها بالناس حتى تفوز بحسنتها، وقد جرّبت مرّة في أيامها الأولى الالتصاق بي وعندما فتحت الدكان ورأت محتوياته كفت، بل . .

لا أعرف بالضبط. مرّة أقول نظرتها الغائبة الواثقة، كطير يعرف أنه سيعود حتماً برزقه في المساء، فلا يحمل قلقاً، وتارة

أقول: صبرها الطويل الذي تبدأ دوامها به على جانب واحد من الصباح حتى «تحل» بُعيد العصر، وتارة أقول: تقبلها للحسنة أي كان واهبها أو الغرض منها. .
«أستغفر الله العظيم». .
غالباً ما أعطف عليها، فأقول: إن النساء جميعاً يشحذن، إن لم يكن مالا فرضى أو أماني، ولأنهن كذلك فلا يؤمن، عند اللحظة المرتبكة، جانبهن. مثل العشب يستطعن أن ينبتن في كل الأماكن والأحوال، فليس غريباً والحال هذه أن «يتكّيفن»، يشحذن، هذه المرّة، من الآخرين، فأحوّل عنها البصر إن لم أحمل شيئاً لها!
كل النسوة المارّات المتدثرات بوجوه آملة ساهمة آمنة بمختلف العروض التي أتحسّسها بخيفة، شحّاذات!
ما بالي أهذي؟؟
«عفوك يارب ّ!» ها هو أول المشترين. «اقتضت حكمتك أن يكون امرأة. .»

***

بعد صلاة الظهر يختفي الناس من الشوارع. فيما مضى كنت أتغيّب للغداء فأعود لأجدهم مصطفين. الآن لا عادوا يصطفون ولا عدت أتغيب. أجلس في الدكان أسبّح وأتأمل الأشياء، وهي تجلس قبالتي، فأتأملها. شحاذتها غريبة، لا تمدّيدها ولا تتضّرع. تختار محسنها بنفسها فتقف دون تردد في طريقه طالبة منه مبلغاً ما، فيرتبك المحسن ويمد يده إلى جيبه، قبل أن يهرب بسرعة، وتتبعه بدعواتها. هل كانت تختاره حقاً؟ محسنوها من كل الأعمار. قد يكون طفلاً وقد يكون عجوزاً. خلت في لحظات، من الدوائر البنية حول عينيها، أنها مجنونة يحس العابر بجنونها فيستسلم لطلبها. رأيتها شحاذة تتوسّل حاجتها بأية طريقة، ورأيتها مجنونة تلقي بتعقلها، أو جنونها، على العالم فتبتزه. حين تسأم تجمع شالها بما عليه وتدسه في جيبها ثم تأتي إلى الدكان لتجلس على كيس الجميد، بجوار كرسيّ، وتشير إلى كيس التبغ أن ألف ّلها سيجارة. عندما تكرّر جلوسها على الكيس ذاته، فرغته وملأته بالحجارة، كيلا تتلفه بالرائحة العطنة التي تنبعث منها. طردتها مرّات لكنها كانت تعود باستمرار، فاستسلمت ليس لها إنّما لفضولي، وهي في كل ذاك ساهمة في عالم آخر. احترت كيف أعاملها، شحاذة فأطردها أم مجنونة فأشفق عليها، غير أني لم أكن واثقا أيهما هي. ومتى خلصت إلى أن ما يهمها هو ما تريده فحسب قرّرت أن أعاملها على هذا الأساس. تريد شيئاً، فبأي حق؟ لا حق لها عندي ولتفعل ما تشاء.
نهرتها أن تخرج من الدكان ليدخل الزبائن المتراجعون وإلاّ فستجدني أشحذ بجانبها بعد حين. ضحكت وعبثت بأسنانها المكسرة قليلاً، ثم مشت خطوات وعادت لتشير إلى كيس التبغ. لففت لها سيجارة ضخمة أخذتها ودعت ـ ساخرة ـ لي، أو عليّ، وخرجت لتجلس في مكانها المعتاد.
فكرت أنها، ربما قصدت بسلوكها أن تثير اهتمامي بها، لكني بعد كل هذا العمر، لم أعد قابلاً للوقوع بسهولة في مصيدة الآخرين، حتى لو كانوا مجانين أو شحاذين. كلنا أمام الله شحاذين، فلنرأف بأنفسنا، ومن لم يفعل فقد ظلم نفسه.

أخذوا الدار!

كل قدومي للدكان اليوم من أجل زبائن ربيتهم كما يربي الفلاح حماماته، فيعتاش منهم وتعتاش منه. يأتيني في هذا اليوم تجّار من القرى لا أحسب أكثرهم سيأتي. هممت عصراً بإغلاق الدكان لولا أن لمحت أبا ابراهيم على ناصية الشارع يأتي متأخراً عن عادته. حمولته خمسة أكياس من الشعير ـ جهّزتها له منذ الصباح ـ يدفع ثلثي ثمنها، ويسدد المتبقي في المرة المقبلة. كان يتأبط مظروفاً بنياً كبيراً، فأدركت أن هناك ما يشغله عني وعن حمولته.
نهضت أرحِّب به وتركت له مقعدي الوحيد، فارتاح عليه مطلقاً تنهيدة طويلة. لأمر ما أحسست أني لست اليوم بائعه. هو يوم مسدود منذ صباحه فلا غرو أن يتواصل مسدوداً! وراء البيع والشراء نمت بيننا صداقة، فصرت، إلى مدى ما، أعرف طباعه: حين يصمت هكذا، متذرعاً بتعبه، أعرف أنه يشكو من تعب آخر. قال لي: إنّ لي في ذمته مبلغاً يريد، قبل أي شيء، أن يسدِّده لي. لا شك في صحة مخاوفي، لكن لم هذا الخشوع الخليط بين الهمِّ والخوف؟
– خيرا؟
– الدار إياها!

- أية دار؟
- التي حدثتك عنها، أنسيت؟

اجتهدت لأتذكر وتذكّرت. كنت أخيط له الأكياس الموزونة حين أتى على غفلة، قبل موعده بكثير، طالبا تحميل أكياسه فوراً. حملها بنفسه وأتممت خياطة آخر الأكياس ليتلقّفه مني، ويقول: إن دار زوجته الأولى تؤخذ منه. لم أفهم، أو أهتم بالفهم، في حينه، من الذي يأخذ له الدار.
- تذكّرت، لكن من الذي أخذها؟
- أنا نفسي لا أعرف بالضبط من. حكاية مضطربة تعود إلى خمسين عاماً، وثمة حجة ما غامضة. أتوا أولا جماعةً، بالحسنى، وقالوا إنّ والدي باع الدار لأبيهم على أن يبقى فيها ما دام حياً. واحتفظ أبيهم بالحجة سرّاً، بل إنه أودعها أمانة عند آخر، ثم ما لبث أن مات، دون أن يخبر أولاده. وحين مات الآخر بدوره، وعثر ورثته عليها سلموها لهم. أعطوني صورة عن الحجة لأستوثق، لكن الشهود الباصمين ماتوا. سألت أولادهم، وسألت الوجهاء المتبقين على قيد الحياة، ولا أحد يعلم شيئاً. عادوا في الموعد المضروب بعد شهر ليأخذوا جوابي. قلت لهم: لا أحد يعلم عن حجتهم شيئاً، وأنّي أشك في أمرها، فإذا شعروا أن لديهم حقاً عندي فليذهبوا إلى المحكمة. سرى الغضب بينهم، وبعضهم لم يتورع عن زج الكلام، غير أني بقيت على موقفي.
- ألا يعقل أن أباك باعها لأبيهم حقاً؟
- لا، لو باعها ما استصلحها وبذر فيها آلاف الدنانير، ثم أوصى عليها أن تكون نصيبي من بين أخوتي العشرة.. وهناك ما هو أهم..
- ما هو؟
- بعد أسبوع من مغادرتهم غاضبين جاءني منهم واحد طلب، «لنتق الشرّ»، أن أبيعها له مجدداً، وبأي ثمن أطلبه، مدّعيا أن لها معزة خاصة عندهم.
- معزة خاصة وقد جهلوها خمسين سنة؟ إنها سرقة في وضح النهار!
- هذا ما خلصت إليه، أيضاً. الأسوأ أن المحكمة ساندتهم واستصدرت قراراً بالإخلاء وتسليمها لهم، وقبل أن أستأنف عليه، أخرجوا زوجتي من الدار..

وذهب فكري إلى زوجته الأولى التي هجرها دون طلاق عندما تزوج بأخرى. محنتها، المسكينة، مضاعفة. قبلت بالهجر لا الطلاق على أن تظل في بيت خاص بها.. ماذا حلّ بها؟
- وزوجتك الأولى أين هي الآن؟
- طبعاً عندي..
ضرتان في بيت واحد؟ كيف تكون عيشته؟
- لن آخذ أكياسي هذه المرة، أعذرني، عقلي ليس هنا..
- مفهوم.. لا بأس عليك.

***

بدت لي حكاية «الحجة»، وأنا أقلّبها، حكاية تصلح لأن تروى في ديوان لمسامَرة الحاضرين. وبدل أن أغلق الدكان، على خيبة أملي في الزبون الذي عوّلت عليه اليوم، أخذت قبضة من اللوز المقشّر وأعملت فيها الفكر. محاكم اليوم دون ضمير! لم يقل لي إن كانت لديه حجة مضادة أم لا، لأستفهم كيف ولماذا حكمت عليه المحكمة، ربما المحكمة كلها لم تكن سوى «حجة» ثانية، فالنية قد بيتت، وأفضل ما يمكنها أن تفعله ليس البت في نزاع وإعادة الحق إلى أصحابه، بل تهدئته.
تهدئة ماذا يا رجل؟
أبو إبراهيم ليس شغل مقاتلات أو مخاصمات. يكفي أن يقيس المرء قامته القصيرة وجسده المنكمش، وأن يطل في وجهه المتمسكن المتساذج ـ على مسكنة وسذاجة ـ بتلك «الحبة» القليلة التي لا تكبرها حتى الكوفية البيضاء المرقطة، ليعرف أن الرجل مغلوب على أمره، لا يخشى شأنه، وأن أقداراً غريبة ساقته إلى ما هو فيه..
أخرجتني من انسياقي في الفكر حركة غريبة. كان وجه الشحاذة، خاصة الفم، يتقلص ويتمدد بضحكات صامتة ذات رقع تشبه رقع الماء المسكوب على الأرض حين تسفها ريح قوية وتجففها: كانت الملعونة تراقبني، وتقلدني وأنا آكل!
طردتها عشرات المرات دون فائدة. رميتها بحبات من اللوز، فبصقت عليّ. طار صوابي فالتقطت متر حبال من بقية لفة انتهت، ونهضت لأضربها. عندما رأتني أنهض، هربت.

كانت أسوأ خاتمة لنهار مسدود منذ صباحه. مع ذلك لم أكن غاضباً منها، فكيف أغضب من شحاذة لا هي عاقلة ولا هي مجنونة.

قبضت على الفكرة! لو يصير أبو إبراهيم مثلها. يجلس أمام دار زوجته الأولى، ويلتصق بهم ليقرفهم في كل لحظاتهم، كما تفعل هي بي.. لن يظل عرق في عقولهم على حاله.. وتخيّلت نفسي شاشة تلفاز، وتخيلته، فيها، يجلس قبالتي، في الموضع الذي هجرته الشحاذة، فارشا كوفيته أمامه، ناهضاً يعترض طريق العابرين بملامح ـ مثل اليد ـ ممدودة.. وضحكت من التخيل الغريب!

أبو إبراهيم يعترض طريق أحد؟!

الولد

بعد يوم مسدود آخر، جاء إبراهيم ليحمل الأكياس عن أبيه. «يناقض الابن أباه في شيء أو أشياء»، كنت أقول لنفسي هذا دائماً كلّما أتى إليّ أو لمحته. سألته عما حلّ بالدار وبالضرّتين تحت السقف الواحد.

- الغريب أنهما متفقتان، وعلى أبي!

قلت أمازحه:

- الظاهر أنّ العجوز لم يعد نافعاً؟!

- من هذه الناحية لا أظن.. وصمت. تخلى عن مرحه وغامت عيناه في شيء يستعيده أو يفكّر به. أحسست أنّ للأمر صلة بالدار فسألته:

- والدار؟

- لا شيء. الحجة التي لدينا مفقودة، وقلت لأبي إن طريق المحاكم طويل وفي حالتنا دون طائل، لكنه، سامحه الله.. ماذا أقول؟ أمي وزوجة أبي اقترحتا عليه أن يستعين بأعمامي، لكنه رفض بشدة..

- صحيح، لماذا لا يستعين بهم؟ موظفون ولهم معارف.

- يقول: إن الاخوة بعد أن يكبروا ويستقلوا بأسرهم يصيرون غرباء.

- كلام فارغ!!

أخذ السلك مني وواصل خياطة الكيس الثالث:

- كلا.. هناك شيء من الصحة في قوله.. وبعد تردّد أضاف:

- يوجد سبب آخر..

- ما هو؟

- يقول: إنّ أحدهم سرق الحجة، وأعلم الغرباء بغيابها وإلا ما كانوا يستطيعون القدوم والادعاء بأنّ الدار ملك لهم. وهو يريد أن يتقصى الأمر..

- ما رأيك أنت؟

- فعل أم لم يفعل أمامه خياران: أن يضيع الوقت بجدال أمام محاكم ليست معنية ـ وإن كانت فليست بنا! ـ ويخسر الدار، أو يستجيب لي. سنتغلب حتماً لكننا سنستعيدها..

- معقول. أتقدر على ذلك؟

- ليس هذا هو المهم الآن. المهم أن نحفظ حقنا، ولا نحوله لجدال يمكن أن يستمر إلى الأبد.

- ماذا يقول الوالد.

- من هذه الناحية، يقول الكثير! أبي لا يريد أن يخسر شيئاً، لهذا فسيخسر كل شيء..

- يخسر ماذا؟

- خلّها على الله!

- يخسر ماذا يا ولد؟

- خلّها على الله يا عمي! لكي يرفض نهائياً التوضيح، يحمل الكيس ويخرج من الدكان متعلّلاً به، لكنها تعترضه على الباب ممسكة بقميصه. شتمها وشتم نفسه وانزل الكيس وناولها ما تيسر.

***

قلت لأبي إبراهيم أحرضه على الكلام عندما جاء مسدداً ما عليه:

- ابنك إبراهيم، أبقاه الله، جدع..

جلس مرّة واحدة وخلع كوفيته. فرد راحتي يديه ثم فركهما. كنت أستطيع الاحساس بانفعالاته. مرّة واحدة قال:

- قل جاهل: طائش: خراء.. العبيط أخذ سكينة وذهب للدار، هل رأيت عبيطاً مثله؟ يحسب أنني لا أعرف تلك الطريقة، وأنني لم أخض في زمني شجارات، لكن ما الجدوى منها؟ إذا كان غريمك القاضي فلمن تشكي همّك؟ كادوا يذبحونه لولا أن تدخلت في الوقت المناسب،

وخلصته . .

– ماذوا فعلوا بك أنت؟

– نالني نصيب، أيضاً . .

قالها بحرج وفرك قذى ما، أو بقية قذى، خاله في مقلتيه .

– لكنه يقول أشياء معقولة . .

– ماذا قال لك؟

سؤاله فخّ ضمني، وفوق أنني سأبدي الجوانب التي يخفيها الشخص عن الآخر في مواجهته ويبرزها لدى طرف ثالث، فإنني سأقع في القيل والقال ونقل الكلام . إنّه يريد أن يفهم الصورة، كأي شخص، أكثر مما يريد إفهامي . بحذر مصدره شعوره أنه يخفي شيئا قلت :

– لست أذكر كلماته بالضبط، لكني فهمت منه أن المحكمة لا جدوى منها .

– صحيح . الحجة ضائعة . .

صمت قليلاً ثم واصل :

– لا أمل في ظهورها إلا بمعجزة، لهذا فأنا أتروّى في تصرفي .

– ابنك يرى ذلك، أيضاً، ويرى أن تدخل المحكمة، الآن، ليس في صالحكم، فوق أنها تستهلك وقتاً طويلاً، عشرات السنين . لقد أخرجوكم بالقوة، لهذا فعليكم العودة بالقوة، أما المحكمة فتأتي حين يكون وضعها محايداً .

– اسمع بقائي في الدار، حجة لا تقل أهمية عن الحجة الضائعة، لهذا فأنا أريد أن أعود إليها أولاً، بالقوة، بغير القوة، هذا موضوع آخر . المهم أن أعود وبأي ثمن . . لهم قريب في المحكمة، وأستطيع احراجه . .

كانت تلك معلومة جديدة . احترت وأحسست في نبرته شيئاً ليس مفهوماً، كأن معلومة أخرى مخفية عني . . كلامه منطقي، أيضاً! هم أدرى بمصلحتهم، فيجب ألا أتدخل ويكفيني ما ولجت فيه . فجأة لمعت في رأسي فكرة :

– هل هناك فرصة للعودة؟

– نعم . . يجب أولاً أن . .

في تلك اللحظة دخلت الشحاذة . الملعونة لا تعدم لحظة مناسبة تقتنصها، ولم أرد أن أبدو قاسياً فأطردها أمامه! وقفت أمام أبي إبراهيم فلم يفهم ما الذي تريده . ظنها زبونة تريد شراء شيء، فصمت . لما ظلت واقفة أمامه أمعن فيها النظر . ضربت على جنبها وأشارت إلى جيبه، ففهم وأخرج حسنته . حالما خرجت التفت لي وقال :

– أتعلم؟ وأشار لها . حدست أنه سيتذمر مثل الكثيرين، لكنه أمسك . هززت رأسي له أن نعم لكي يتكلم، لكنه لم يتكلم . حين أيقنت أنه صامت قلت أبدي له عدم تطفلي :

– أنت أدرى بمصلحتك .

خرج . أخذت أفكر في «فرصة» عودته . ادعوا أن الدار لهم، وحاولوا شراءها، وزوروا حجتها أخرجوه بالقوة، ثم ها هو لهم قريب في المحكمة، والله أعلم بالمخفي . أشخاص كهؤلاء، حبكوها جيداً وإذا استولوا على شيء، لا يعيدونه من تلقاء أنفسهم، فكيف سيعود؟

«الناس أسرار» قلت في نفسي . لماذا أشار لها؟ ووجدت نفسي أتأملها . لا يعقل أن يكون لها ضلع في داره المأخوذة . لكن من يدري؟

***

العمر لعنة إذا ترافق مع المرض . أسبوع كامل أنفقته في سريري، منتظراً أن تخفّ أوجاعي . حين امتد الوجع من صدري وظهري إلى ركبتي وصار سعالي جافاً جارحاً بدل أن يترطب، قلت ألحق نفسي . ذهبت ليلاً إلى المشفى كحالة طارئة . جعلوني أرقد في سرير ريثما يتفرغوا لي . بعد نصف ساعة ناديت طبيبا مارا وقلت له إنني أتألم منذ أسبوع، فآن لهم أن يتذكروني . ضحك قائلاً :

– يا حاج، نحن لم ننس أمرك . ثم إنك احتملت أسبوعاً، وهذا يعني أنك تستطيع الانتظار ربع ساعة . هناك حالات طارئة .

هي حالة واحدة ليست أكثر . الأرجح مريضة جميلة بلا شك، لأنه من بين الطبيبات المتضاحكات، تجمع حولها الأطباء عدا عن الممرضين! استغفرت ربي متصَبّرا، ولولا الرائحة وغربة المكان المزعج لغفوت قليلاً . تذكرت أم ابراهيم وتساءلت كيف تعيش مع ضرتها . يقول إبراهيم إنهما متفقتان لكن ذلك هراء . وفجأة انبعث صرير أشبه بالصفير، وبعد قليل اندفعت دفتا الباب وعبرت نقالة أمسك طبيب أو ممرض بضمادة يلصقها ببطن المستلقي، ومع ذلك كان دمه ينقط . أدرت وجهي لأني أكره منظر الدماء، فإذا بهم يضعونه على

السرير المجاور. كنت أسمعهم يطلبون وحدات من الدم ويرطمون بكلمات أجنبية، محاولا ألا أرى. لا أعرف ما الذي دفعني للنظر، لكني لم أخطئ المصاب. كان إبراهيم. صدمت قليلاً، ونهضت أستفسر عن حالته. قالوا إنهم مسيطرون على الحالة، فتشاهدت. بعد ساعة بالضبط أتي الطبيب ليعاينني. قال ضاحكاً: إنه واثق من أنني قد شفيت، فقد شاهدني أنهض وأدور. لم يكن لدي مزاج لأردَّ عليه..

***

زرت إبراهيم فور أن خرجت من الطوارئ، وكانوا قد نقلوه إلى غرفة في الطابق الأعلى. لم يسمحوا لي بالدخول عليه، فوقفت في الممر أنتظر. دقائق وحضر والده. لم أسأله ماذا حصل لأنني تخيلته ولم أحتج إلى تأكيد. مع ذلك قال أشياء كثيرة من تلقاء نفسه. الأصح أنه هذى. مرة يضرب رأسه بكفه ومرة يشتم ابنه. تارة يسبب كل الدور التي لا تستحق أن يفقد المرء حياته من أجلها، وتارة يقسم أنه لن يسكت على الأمر وسيدفعهم الثمن. حين اشتط بهذيانه ربتت على كتفه، فوضع رأسه على كتفي ونشج.

الشحاذ

تناقص الزبائن الذين ربيتهم كالحمامات، والمتبقي منهم لا يتجاوزون عدد أصابع يد واحدة أضيف إليهم الشحاذة. دكان لخمسة زبائن وشحاذة! في الحقيقة دكان لسبعة شحاذين! شيء ما شاخ في روحي، حتى أنني لم أعد أهتم بتحضير الطلبيات. وحين جاءا - إبراهيم وأبوه - كالعادة لم يجدا شيئاً. لم يعلقا بشيء، فالطلبية آخر ما يفكران به. إبراهيم شاحب وصامت، وأبوه فرح أخذ يحدثني عن عودة زوجته إلى الدار. سألته:

- هل استعدتها؟
- ليس تماماً. (صانعاً بيديه نصف دائرة)
- هل فقدتها؟
- ليس تماماً. (نصف دائرة)
- ماذا إذن؟
- خذ يا سيدي:..

قصة طويلة وجاهة أطول مكونة من أخوته، وجاهة أخرى قسموا الدار دارين «شريطة عدم الاحتكاك بين الجهتين». وشرح لي تفاصيل كثيرة عما سيفعله بهم، لكني كنت أفكر بما سيفعلونه به، فيما كان ابنه يصغي بصمت. خرج أبو إبراهيم قليلاً حين ناداه أحدهم، فهمس لي ابنه:

- لا تصدق كلمة واحدة. استأجر نصف الدار منهم، وسامحوه هم من الأجرة!

ضحكت بأسى، فضحك معي، ثم صمتنا معاً. إن قلت شيئا فسأحرِّض الولد على أبيه وهو على ما يبدو لا ينقصه تحريض، وإن صمت فسأصمت بأسى. كنت أتأمل إبراهيم وكان يتأملني. أية أفكار كانت تراودنا؟

وهربت من عينيه إلى الرصيف. كانت الملعونة تجلس في مكانها تضحك كأنها تقرأ أفكارنا. منظرها دفع الفكرة المجنونة دفعا إلى رأسي: أبو ابراهيم شحاذ مثلها.

حاورت نفسي أن لا، فهو ضعيف وليس متطفل. لكن إذا كانت هي قد مدت يدها، فتطفلت، وضعف هو في حقه حتى «مد يده» وشحذه منقوصا، وكما يقول ابراهيم لم يأخذ شيئا، فما الفارق بينهما؟

إبراهيم بلحظة غريبة، كأنها حكيمة مبطنة، كأنه يلج بها رأسي، قال:

- القصة ليست قصة دار!..

قصة دار؟ قصة كرامة؟ لتكن أي شيء.. لا أريد، الآن، أوجاع رأسي بها أو بمخططات إبراهيم وليفعل بدوره ما يشاء! »قالوا الجحا يوجد حريق في بلدك، قال: فليخطئ حارتي، فقالوا في حارتك، قال: ليخطئ بيتي، فقالوا في بيتك، قال سلمت منه!»

إذا كان قد فقد داره بتلك الطريقة، فمن يضمن لي أن لا تأتي الشحاذة في الغد وتقاسمني الدكان؟!

فكرة معقولة أم مجنونة؟

لا يهم!

وقمت لأطردها!

---

* قاص فلسطيني يقيم في رام الله.

مقتل الجندي داني يعقوب!

بكر أبو بكر *

يصحو مبكراً ليطل من نافذة المنزل على الحقل المجاور ، يمتّع ناظريه برؤية أشجار الزيتون وأشجار المشمش والخوخ ، ويطرب لسماع تغريد الطيور ، ثم يحمل حقيبته المدرسية ويعرج على صديقه في المنزل المجاور ، ويتقدمان سيراً لمسافة طويلة حتى الوصول للمدرسة . كان الأول يقول : أحب أن أكون طياراً يمسح فضاء الوطن . وكان الثاني يقول : أرغب أن أكون بحاراً يجول المحيطات والبحار

وكانا معاً يتجادلان في أحلامهما ، ويخططان لمستقبل مقبل كما هو شأن جميع الصبيان والشباب في العالم . . . . إلا أن للرغبة والحلم في فلسطين نكهة مغايرة ، لأنها لا تشترط الإرادة والجد والتفوق فقط ، وإنما تشترط تجاوز عقبات ليس أقلها الإفلات من أسر احتلال أحاط الأفكار والعقول والأحلام ، كما أحاط الناس والبيوت والشوارع بأسلاك شائكة ، أو فصلها بخنادق وسواتر ، وكانت هذه ، أيضاً ، من العناوين العريضة التي يتحدث فيها الصديقان ، ويشركان بها ثلّة من زملائهم في المدرسة .

عندما ألقى الحجر الأول على مجرم الحرب المعروف أرئيل شارون في ساحة الأقصى ، كان محمود وصديقه جابر قد وصلا إلى قناعة بأن الحل لحالة الأسر والفصل التي يعيشونها عقلياً وماديا مردها استقرار الاحتلال . . . فكان لانطلاقة الحجر من أيديهما دلالة على السخط من ما يرمز إليه الاحتلال من قمع وإذلال وتعذيب وقتل وهدم وسجن وتقطيع وإرهاب ، لقد أعلن محمود انطلاقة انتفاضة الأقصى ، وحقق انتصاراً لواحد من أحلامه الكثيرة ألا وهو حلم الإفلات من أسر الواقع المهين ، والنهوض بكبرياء الثوار ، وعزيمة المناضلين لزعزعة استقرار المحتلين الى أن يرحلوا .

شهور عدة وكل من الصديقين محمود وجابر وزملائهما يمارسون طقوسهم المقدسة على حواجز الاحتلال ، يجمعون الحجارة ويملأون حقائبهم المدرسية بها ، ويتخذون ساتراً ويهاجمون الدوريات الرابضة على مداخل مدينتهم ، بتواصل ارتبط بعنفوان الشباب وعزيمة من لا يقبل الهزيمة .

نظر محمود في عيني داني ، الجندي القابض على جمر التصدي لشبان الانتفاضة ، فتوقف كل منهما لحظات كانت قصيرة وإن بدت لكليهما طويلة ، فقال محمود في نفسه : بماذا يفكر هذا الجندي يا ترى يا ليتني مكانه !؟ لقد نزع «داني» لأول مرة نظارته عن عينيه ، ونظر نحو البعيد لتستقر عيناه في عيني الصبي الفلسطيني في السادسة عشرة ، تأوه «داني» طويلاً وشعر بالانقباض ربما لأول مرة منذ وقوفه على الحاجز ! كان الرجل ابن لأبوين قادمين من «كييف» عاصمة «أوكرانيا» الجميلة ، التي يخترقها نهر جميل يجعل من العيش فيها أمنية ومطلباً ، وكان والداه كثيراً ما يحدثانه عن تلك الأيام السعيدة هناك ، رغم فقر الحال المرتبط بطبيعة النظام والأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانا يعيشانها ، والتي دفعتهما لاحقاً لترك مسقط رأسيهما والقدوم الى (إسرائيل) .

في زيارته الأولى إلى «كييف» اكتشف الفرق بين أن يكون جندياً في حرس الحدود على مداخل المدن الفلسطينية ، وبين أن

يكون في بلده الأصلي «كييف» مزارعاً لطيفاً منتجاً. تنازعته الكثير من الهواجس والأحاسيس، وحلم بالاستقرار النفسي وكان يأمل كثيراً في ترك درعه الحديدي أمام الحاجز والركض باتجاه المتظاهرين العزل وحمل حجر وإلقائه باتجاه مركبات الجيش أو حرس الحدود.

عندما التقت نظرات محمود و«داني» انطلق البريق من عيون الصبي الفلسطيني الحالم بأن تطأ قدماه أرضاً خالية من الحديد والنار والخوذات والبارود اتجاه «داني» الباحث عن الاستقرار والعيش بسلام مع جيرانه الأقربين. ابتسم «داني» من بعيد، وتمنى أن يرى محمود ابتسامته، وعاد ليجلس في المركبة صامتاً. مرت الشهور الطويلة و«داني» يتفتت بين مبادئ بدأت تنمو وتطغى وترفض ما هو فيه، وبين واقع كئيب وحزين يعيشه في وحدته العسكرية التي يتفاخر الجنود فيها بكم قتلوا أو أصابوا. وبأم عينيه شاهد التنكيل والضرب، وحاول مراراً أن ينتزع نفسه من خوفه وجبنه ولكن لا جدوى. ظلت المشاهد تتكرر، والألم يطغى والحزن يكاد يقتله إلى أن التقت تلك النظرات.

اتهمه زملاؤه بالجبن والتفاهة والتقصير لأنه لم يرفع بندقيته ولو مرة واحدة وأطلقها باتجاه المتظاهرين. كان يتألم كثيراً جالساً في المركبة أو منتظراً أن يطل عليه ذاك الصبي الشجاع الذي رصد حركته ومكان ربوضه الدائم وراء ساتر يلقي منه الحجارة إلى أن رمى الحجر اتجاه الدورية.

نظر محمود إلى نفسه، والبعض من حوله يصيحون عليه بالعبرية أن ابتعد واختبئ، فلم يفهم ذلك!؟ كيف لأصدقائه الحديث بالعبرية وهو الوحيد بينهم الذي يتقنها لعمله في العطل الصيفية هناك في فلسطين التاريخية، إلا أنه خرج عن ذهوله عندما شده أحدهم وراء ساتر إسمنتي طويل، فنظر فزعاً: إن من حوله يلبسون ملابس الجنود الإسرائيليين.. يالله، كيف ذلك!! وازداد استغرابه حينما نظر إلى نفسه يلبس الملابس نفسها؟!

في الاتجاه الآخر، نظر «داني» إلى أصدقائه بالجينز والكوفية فشعر بالفرح ربما لأول مرة منذ خدمته في الضفة الغربية...؟! ظنها مزحة أو نكتة للوهلة الأولى، ولكنه تيقّن عكس ذلك عندما كان ينظر لنفسه بنفس اللباس.. كان الجميع يصرخ به أن ابتعد وهو لا يفهم من اللغة العربية إلا القليل... أصابته رصاصة في الكتف استدعت نقله إلى المستشفى.

لقد التقط النور المنبعث من عيون محمود و«داني» رغباتهما الدفينة، فكان كل منهما في موقع الآخر في جسد الآخر. عاش محمود يوماً أسود في الوحدة العسكرية لـ«داني» الذي أصبح، حيث الاحتفالات تقام كل يوم على شرف عدد الضحايا من الفلسطينيين، وعاش «داني» يوماً أبيض سعيدا ذكّره بالأيام الجميلة التي قضاها في زيارة «كييف».. وأحس بمدى القرب والحميمية والود والحب الذي أحاط به جريحاً من صديقه المقرب جابر ومن أهله وجميع أصدقائه، بل ومن جمع غفير من الناس لا يعرفهم ولا يعرفونه أعاده لذكرى حميمية اللقاء الشرقي مع أقارب أهله القاطنين قرب النهر، ما افتقده لاحقاً في مجتمع المدرسة والوحدة العسكرية.

لأول مرة، ربما يصحو محمود بحلته الجديدة ليرى الشمس مطفأة وشجر الزيتون محترقاً، وجمع من الغربان تسير حاملة نعش شجرة الخوخ والمشمش، ورأى فزعاً انتحار الطيور وتحول المرج الأخضر إلى هشيم. لقد كان في الوحدة العسكرية يعيش سجنه وسجن «داني»، ولأسبوع تلا وهو في هذه الحالة عند الحاجز ينتظر ظهور «داني» رامي الحجارة من بين الجموع، وينخلع قلبه كلما سقط شهيد أو أصيب جريح وهو لا يستطيع فكاكاً من روحه وجسد غيره، وكان «داني» في المقابل يتمنى أن تطول به الأيام في المستشفى وألا يعود للشقاء بين مهووسين بالقتل من زملائه إلى أن كان خروجه من المستشفى مستدعياً لعودته وجابر إلى المواجهات.

كان محمود مازال يحدق في البعيد باتجاه الزاوية التي اعتاد «داني» - محمود سابقاً - أن يرمي منها الحجارة.. إلى أن أطل وجابر، فانقبض «داني» الذي عرف بانتهاء أيامه الحميمة بجسد محمود وكان للنظرات المتبادلة بينهما من بعيد أن تبادلا جسديهما، ولكن إحساساتهما تكاثفت وتعاظمت. سقط محمود مغشياً عليه قرب جابر الذي سارع إلى إسعافه، ولم يعهده ضعيفاً هكذا يسقط من ضربة شمس لم يكن يعرف أنها في صديقه ولأيام مضت كانت منطفئة. وجلس «داني» في العربة العسكرية منكسراً محبطاً. وفي اليوم التالي أعلن الجيش الإسرائيلي أن حصيلة المواجهات كانت ثلاثة قتلى من (الإرهابيين) الفلسطينيين وعشرين جريحاً، ومقتل الجندي داني يعقوب.

---

* قاص فلسطيني يقيم في رام الله.

النصف الآخر من الكرة .. الأرضية

محمد الخطيب الكسواني *

ذات مساء خريفي بارد، عاهدت نفسي ألا أعود إليها، إلا مع امرأة تبدو حزينة أكثر مني، كنت أظن أن الشوارع المزدحمة ستبتلعني عشرات المرات، والشوارع القاحلة ستدهش من شدة ارتيادها، والأرصفة المتربة ذات الأشجار الناحلة ستيأس مني، حتى المقابر ستمل مني . . . كل هذا كان محض وهم، لقد صادفتني على باب غرفتي في طابق علوي من مبنى رمادي سقيم. عرفتها منذ أكثر من عام، ولكني لم أتذكرها منذ عرفتها، شيء ما قال لي بأن ضالتك لن تجدها إلا في النصف الآخر من الكرة الأرضية، أو على شاطئ بحر بعيد حيث لا يعيش إلا بعض صيادي الحيتان والأسماك الشرسة. قالت لي وقد اقتعدنا منضدة صغيرة في مطعم صغير يشبه حانة في النصف الآخر من الكرة الأرضية، إنها تريد بيتاً يشبه كنيسة من الجليد والضوء والدهشة، وعربة تجرها غزلان الرنة، وزريبة خيول من أشجار الصنوبر، وخم أرانب من زجاج دافئ. . . ستعتني بالخيول، تريدها قوية، شابة، تقتلع كل شيء أمامها لتأتي بفارس أسرته الكتل الجليدية، في مكان ما من النصف الآخر من الكرة الأرضية. قالت إنها ستعتني بالدجاج، تريد ريشه من الثلج الدافئ، يشبه كفيّ أم طوتها دروب بعيدة في بحث عن مهر قوي تخاطفته أغصان غابة مظلمة في النصف الآخر من الكرة الأرضية. قالت إنها ستصلي في كنيسة الثلج والضوء، ألمحت أنها ربما ستكون راهبة هناك، وقالت: لا بد أن يكون زجاج الخم نقياً، لا بد أن يكون ريش الدجاج دافئاً، لا بد أن تكون الخيول قوية، وأشجار الصنوبر لا بد أن تكون عظيمة، قالت بعد أن ابتلعت رقها بقوة. . . أو بتشنج .

في ظهيرة يوم أظهرت فيه الشمس بعض فتنتها ضبطتها متلبسة، رأيت بأم عينيّ أسنانها البيضاء. . . ، لم يكن يخطر ببالي أني سأبحث يوماً عن امرأة يحكى أنها ابتسمت ذات يوم . . . أحب المرأة – قلت في نفسي – كعاهرة، لكن شريفة كشرنقة صينية، بعيدة قريبة سريعة رقيقة كنسمة ريح غربية. وقلت لها – بصوت جليّ – (أحبك تضحكين) .

عصر يوم فيه بعض الشمس قالت إنها تحب القصص وعصير الليمون، وذكريات الأماسي الشفيفة، وأحاديث الحب، وحدثتني مطولاً عن كتاب في منطق اللامنطق. كان لقاءً عابراً سريعاً، أذكر أنها اختفت يومها تحت سحب سيجارة مدخن نهم، على طاولة مجاورة في المطعم الصغير الذي يشبه الحانة في النصف الآخر من الكرة الأرضية. تركتني وقد شدّني تقرير الصحيفة عن أمطار تساقطت في مكان ما من النصف الآخر من الكرة الأرضية. وغمر المكان، أزهقت أرواح، واقتلعت أشجار، وجرفت عربات إلى الأطراف. في الصورة مع التقرير، رأيت فيما رأيت – أو – في قاع فنجان القهوة – المرأة التي تبدو – ربما – حزينة أكثر مني .

وبعد أيام أخذتُ أبحث عنها، ولم أجدها، بما لا يدعُ مجالاً للشَّك في أنها الآن في مكان ما في النصف الآخر من الكرة الأرضية .

---

* قاص فلسطيني يقيم في رام الله .

حلقة .. مفقودة

محمد نايف *

ليلاً بالأمس، بل منذ سنين – لست أدرك تماماً متى، ماذا سيسعفني لو تذكرت؟ ففي المحصلة ليس زمني سوى ذرة غبار تاهت في تاريخ الزمن –زارني ضيفٌ مقيم؛ لشحوبه.. من المفترض أنْ يكون عزيزا على مهجتي، كنتُ على وشك اتخاذ قرار بالبيات، بل اتخذته وشرعت بتنفيذه، إذ أيقظني بغلظة –وأظن أن هناك خيانةً في ملاءمة معنى اليقظة لمرادها –فالقسوةُ منطقّي في عزله في دائرة اللامنطق، لذا ومن باب ردّ الجميل أخذ يمارس نوعاً من العربدة الفكرية، إذ تيقن من حالة الهزال التي استفحلت بي واحتلت جميع المساحات المفرغة عندي – أي احتلتني–، بهذا بدا كأنه يروم مناظرتي، صدقاً لا أدري ما الذي أغواني...! شوقني وزج بي في خانة التحدي والتفكير في إجراء المنازلة غير المتوازنة بين ضميرٍ حيّ وفكر ميت، بين عبق الروح.. وغبار الجسدْ.

هكذَا بدأتْ تجهدني اَلحيرة لترسم تجاعيدها على جبهتي المرهقة، علني أقبل...؟ وإن كان ذاك فلماذا؟ هكذا بين أخذ ورد، بين ترغيبة تارة وترهيبة أخرى... رضيتُ بمواجهة محسومة قبل البدء... ضرب من المقامرة... لا يخلو من المغامرة، ربما دفعني إليها فضولي لاختبار قدراتي على الصموّد بعدماً فرغت. أو لإجراء مقارنة عادلة بيني وبيني للحكم على المزاجية القاتلة من خلالي،.. أو ربما لأن في الانسحاب ما يكفي ليُخجل الذاتْ...، حتىً مع تلك المعرفة بالخبرة المتواضعة وعدم التكافؤ... أو لأن الهروب غير مجد مع هذا النوع من الضيوف.. ثقيلي الهمّة، فالخلاصُ منهم يستحيل إلا بموتٍ محتم؛ أو بأخذ مبتغاهم تماماً كمعظم البشرَ.

نظراً ليقينه أنني أمقتُ الجدل معه وأتجنبه، لم يتوانَ في الجولة الأولى أن يبديَ بعض المرونة الهادفة إلى تبديد شكّي بنواياه.. وإذْ بسيل من ملامح الكآبة في حديثه يزحف بسلاسة المياه الراكدة، أأرادَ إغرائي بذلك! أم أراد إيهامي بتفهمه حالتي المستعصية فشرع بهاً –الكآبة– لكي يخدعني بطعم يكوي الأحشاء بعده؟ هكذا تمَّ التغريرُ بي غير مسلوب الإرادة... أَولسنا نغرر بنا.. عادةً!!

بذاك الاختلاط المشّوه للإرساليات العصبية والانفعالات التلقائية، وسيادة مشبوهة للحوار الصامت أُسدل الستارُ عن تلك الجولة بنكهة الرضى المتبادل.. هو يعلمُ أنَه المنتصر نهايةً.. أما أنا فيقنعنيً ذلك القدَرُ من الزهوة المكسوة بنصر مؤقت مبطن بالهزيمة الدائمة، كما أن فيه عزائي بتجسيد الصدق للزهد في الحياة، إذ يكفيني لونٌ يثير شهوتي يحرضني عَلى الإَصغاءً لحديثه عن بائعة الورد العبثية.. التي اعتادت البيع القسريّ حتى للورد.. أسيرة خيالها المشدوه.. رهينة مرآة الماضي.. إذ تعيش نفسها؛ وتراها من خلال صور رسمت لها في عيون دونها.. فتستهويها؛ هذا الخداع للأحداث.. هذا الخلط بين الوعي والفنتازيا.. تلك القراءة العابرةَ بين السطور تبصقني مملوكاً عليلاً إلى جولة أظنُّ فيها الحسم.

أنتظر الجولة الثانية.. كعبدٍ يتوق للحرية.. مع فارق التشبيه ونقيضه، أنتظر الهزيِمة لكي أخلد لشبه السبات الذي لطالما

كنت زاهداً فيه لكنني عشقته الليلة! هذه المفارقة يعللها الملاذ من ذاك الجلاد الذي لا يرحم، قرصان المتاعب النفسية، ربّان باخرة الهلاك الأبدية.

أنتظر الهزيمة بفارغ الصبر لكي أخلص إلى نتيجة تشقيني فأهواها، هي القحط والجدب، بل الإفلاس الفكرّي الذي اعتدت عليه، إذاً أشعر بحكمتي حين أدركهُ منهكاً بعناء بعد غنىً وسعة اقتدار لا مثيل لهما، فأصمتُ وحيداً.

أنتظر الهزيمة التيً تلازمني في ظل أشواط الدهر التي مرت كغريب دون راحلة، دون أن تمهلني أو تُبقي ما يُفصح عنها، ما يُدلّلَ أقلّه على مرورها، سوى ما يذكره حولي بعض المتهمين بالبشرية.

بينما يبدو لي - من جلسته متكئاً يحتسي البُن، ويعُجّ محيطه الخانق بالأفكار البليدة المتدلية من تعرجات وجهه الكسولة الغامضة التي لا تقود إلى سجل محدد - ذاك الماردُ لا يبغي القضاء عليّ في هذه الجولة.. إذْ من الصعوبة بمكان، عن أن يطاح بي أن يجد من يسامره غيري؛ السمر حرقته فطرةً وبهذا له الغلبةُ دائماً.

لذا اتفقتُ معه على أن نُنصّب المنّبه حكماً نزيهاً - ليس من البشر- ونظراً لأن الوقت سانحٌ لإهدار بعضه، ولأن تلك هوايته معي أخذ يحتبر جلَدي دون أنْ يبارزني فيطيح بي وينتهي الجدل؛ كأنه في هدنة ملؤها العجرفةُ والكبرياء مع شيء من الورع الحذر من نقمتّي عليه وإعلان الانسحاب قاطعاً الأمل بمبارزة قريبة؛ فالمسألة نسبية الطبيعة، لذا رضخ لتهديد لمع بمقلتي. وضع حداً للمماطلة، واستأنف الجولة الثانية فوراً، حيث استنفر الرعشة بأطرافي، إذْ طرح قضية الجنون موضوعاً قيد البحث وأنشأ لها ملفات مساندة؛ تحكي عن السخافة.. والحماقة، وغيرها، وهنا مكمّن قوته وضعفي أمام واقعيته. بدأت أستر هزيمتي المتوقعة، وأنتقم لي بالاحتيال على مفرداتي - مفهوم بعيد عني- فقط لأفحص ثقته بصدقي في الإقرار والموضوعية، أليس المفهوم السابق صنعة البشر، ومقتل مصداقيتهم.. كما بداية التنبؤ بتقزيمهم.

أوليست المصداقية.. عماد الإنسانية؟!

كانت نظراته بتلك الجولة تحمل رسالةً واضحةً تعتمد على إيمانٍ راسخٍ بجنوني من مجريات حياتي، وإذْ ذاك كان دفاعي يعتمد على الولوج إلى قبو الاحتيال القذر، لقد هزمني لحداثتي به. فهم أنني لا أُتقنه، وأسعده أنني سجينُ طبيعتي المظلمة لا أخرج عنها إلا ركيكاً، عالجني بدهاء فتركني أواسي الجراح وألملمُ نفسي في نهاية الجولة، بدورهً، اعتنى بتغييب الحكم خلسةً علنيةً دون أنْ يلتفت إلي الخلف مدركاً لغاية في نفسي أنني لن أشيَ به، ها هو يعزلُ المنبّه استعداداً لسمرً يحدد نهايته هو؛ ويكتفي بصمتي على جريمته ليصدر مرسوماً يقيلُ القلب، أيضاً، ويعفيه من أداء مهمامه المعنوية، وكأنه بهذه الإجراءات التعسفية رام أن يستفرد بي ويجرّد ذاتي.

حينها فعلاً راودني إحساسٌ بأنني أودُّ الصراع وآخذ النتيجة بسلبياتها، وإيجابياتها، إنْ وجدتْ؛ وهنا ثمنُ صمتي على جريمته يجسد الرشوة، فهو بهذه الحركة يريد أن يدع للمنية روتينه القاتل فلا يجيبه بصرخة تربكه وتقطع انسجامه، وهنا شعر بسقوط ورقة الانسحاب فتهياً لفرض الجولة الثالثة.

أظنه أحب خوض غمارها معي لمعرفته أنني أرضٌ خصبةٌ لبحوث تلك الجولة إذ تحكي بدءاً عن دعارة الفكر الاجتماعي، ثم اغتيال الإنسانية، ثم عذرية أبواب الصدق، وعذرية الشفاه البشرية فيه كذا الملائكية وسماتها، كما النطق بوق الرّب.

كفى، بداية.. نهايةً، لستُ أدري ما أقول إنّما هذه جولتي أنا.. امنحني الوقت فقط، هذه جولتي عكس التوقعات؛ حتماً كانت جولتي فأنا تأخذني السّنة لشهور بها.. أكيدٌ أنها لم تغزه لسنوات.. لم تشكل معظم فراغه ومؤرقاته، لم تكُ منبتَ الحرمان.. وعرّابَ العذاب.

حقاً، هذا الضيفُ رائع..؛ روعته فيمن أرسله، هل يعلم أنه رسولُ المعجزات؟ ولكن،

تبقى هناك جولةٌ لم تعقدْ... حلقةٌ في السلسلة....

مفقودة... ولنْ تكون

إنها بين ضميرٍ حيّ.. وإنسانيةٍ ميتة.

---

* قاص فلسطيني يقيم في رام الله.